الفصل السادس

كوبا والولايات المتحدة*

داود يواجه جالوت**

تمتلك كوبا والولايات المتحدة موقعاً مثيراً للفضول ـ وفي الحقيقة فريداً ـ في العلاقات الدولية. وليست هناك حالة مشابهة لذلك الهجوم المستمر من قوة ضد أخرى: وفي هذه الحالة هجوم القوة العظمى ضد بلاد من العالم الثالث، فقيرة، وهو هجوم اعتمد على الإرهاب، والحرب الاقتصادية، واستمر أربعين عاماً.

وفي الحقيقة، يعود التعصب الكامن وراء هذا الهجوم إلى

---

* هذه نسخة محررة من كلمة ألقيتْ في كنيسة أولد ساوث في بوسطن، 1 حزيران، 1999، ورعاها قساوسة من أجل السلام.

** الجبار الفلسطيني الذي حاربه داود ـ المغني الأكبر، لحسن سعيد الكرمي.

وقت طويل جداً. فمن الأيام الأولى للثورة الأمريكية كانت أعين الآباء المؤسسين على كوبا. وكانوا صريحين تماماً حول هذا الأمر. وكان جون كوينسي آدامز، هو الذي قال، حين كان وزيراً للخارجية: إن احتلالنا لكوبا يمتلك «أهمية فائقة للعادة» للمستقبل السياسي والتجاري للولايات المتحدة. وقال آخرون: إن مستقبل العالم يعتمد على احتلالنا لكوبا. كانت مسألة «أهمية فائقة للعادة» منذ بداية التاريخ الأمريكي، وبقيت هكذا. فالحاجة إلى امتلاك كوبا هي المسألة الأقدم في السياسة الخارجية الأمريكية.

إن العقوبات الأمريكية ضد كوبا هي الأكثر قسوة في العالم، أكثر قسوة بكثير من تلك التي فرضت على العراق، على سبيل المثال. ونُشر خبر صغير في نيويورك تايمز مؤخراً قال إن الكونغرس يمرر قانوناً للسماح للمصدرين الأمريكيين بإرسال الطعام والدواء إلى كوبا. وشرح النبأ أن هذا تم بإلحاح من المزارعين الأمريكيين. أما كلمة «مزارعين» فهي تأنق بياني يعني «المشاريع التجارية الزراعية الأمريكية»، لكن هذا يبدو أفضل لو قلت: «مزارعين». ومن الصحيح أن العمل التجاري الزراعي الأمريكي يريد العودة إلى السوق. ولم تشر هذه المقالة إلى أن تقييد بيع وتصدير الطعام والأدوية هو انتهاك فاضح للقانون الإنساني الدولي. وشجبته كل هيئة ذات صلة. حتى منظمة الدول الأمريكية المذعنة عادة، والتي نادراً ما تقف ضد

الزعيم، شجبت هذا وعدته غير قانوني وغير مقبول (انظر الفصل 12).

إن السياسة الأمريكية تجاه كوبا فريدة من نواح متنوعة، قبل كل شيء بسبب الهجوم المتواصل، وثانياً لأن الولايات المتحدة معزولة كلياً في العالم، في الحقيقة، معزولة 100٪، لأن الدولة الوحيدة التي ينبغي عليها أن تصوت بشكل آلي مع الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، هي إسرائيل، التي تنتهك الحظر علناً، مخالفة تصويتها.

إن حكومة الولايات المتحدة معزولة أيضاً عن سكانها. فبحسب آخر استفتاء للرأي اطلعت عليه، يعارض ثلثا السكان في الولايات المتحدة الحظر. لكنهم لا يأخذون بالاستفتاءات في عالم الأعمال، وهناك دليل قوي بأن القطاعات الرئيسية في عالم الأعمال، والشركات الكبرى، تعارض الحظر بشدة. وهكذا فإن عزلة الولايات المتحدة هي عنصر آخر غير عادي. فالولايات المتحدة معزولة عن سكانها، وعن صانعي القرار الرئيسيين في هذا المجتمع، الذين يسيطرون على الحكومة بشكل كبير، وعن الرأي الدولي، لكنها لا تزال، رغم ذلك، ملتزمة، وبتعصب، بسياستها التي تعود إلى جذور الجمهورية الأمريكية.

سببت كوبا هستيريا حقيقية بين المخططين. وكان هذا

صارخاً، بخاصة، في عهد كينيدي. وتصف الوثائق الداخلية لإدارة كينيدي، المتاحة حالياً، جواً مما دعي بـ «الوحشية»، و«التعصب»، بسبب فشل الولايات المتحدة في إعادة غزو كوبا. وكانت تصريحات كينيدي العامة نفسها وحشية بما يكفي. وقال علناً: إن الولايات المتحدة سيجرها حطام التاريخ إذا لم تعاود وضع كوبا تحت سيطرتها.

وفي 1997، في منظمة التجارة العالمية، حين اتهم الاتحاد الأوروبي الولايات المتحدة بالانتهاك الصارخ، لقواعد منظمة التجارة العالمية في الحظر، رفضت الولايات المتحدة حكمها، الأمر الذي لم يكن مفاجئاً، لأنها ترفض حكم الهيئات الدولية بعامة. لكن الأسباب كانت هامة. رفضت حكمها على أرضية تحفّظ يتعلق بالأمن القومي. فالأمن القومي الأمريكي مهدد بوجود كوبا، وبالتالي ينبغي على الولايات المتحدة أن ترفض حكم منظمة التجارة العالمية. وبالفعل، لم تجعل الولايات المتحدة ذلك الموقف رسمياً، لأنها إن فعلت ذلك ستعرض نفسها للسخرية العالمية، لكن هذا ما كان الموقف عليه، وتم التصريح به علناً، وبشكل متكرر. إنها مسألة أمن قومي؛ وبالتالي لا تستطيع النظر في حكم منظمة التجارة العالمية.

سيسركم أن تعرفوا أن البنتاغون قللت من شأن التهديد الكوبي بغزو الولايات المتحدة مؤخراً. التهديد لا يزال موجوداً، لكنه ليس خطيراً كما في السابق. وشرحت أن السبب

هو تدهور القوات العسكرية الكوبية المخيفة بعد نهاية الحرب الباردة، بعد أن توقف الاتحاد السوفياتي عن دعمها. وهكذا نستطيع أن نرتاح قليلاً؛ ولا ينبغي أن نختبئ تحت الطاولات كما علمونا أن نفعل في الصف الأول. وهذا لم يثر أية سخرية حين تم التصريح به علناً، على الأقل هنا. أنا متأكد من أنه أثار السخرية في أمكنة أخرى؛ بوسعكم تذكر رد السفير المكسيكي حين كان جون إف كينيدي يحاول أن ينظم أمناً جماعياً ضد كوبا في بداية الستينيات في المكسيك: قال السفير إنه سينسحب للأسف لأنه إذا قال للمكسيكيين إن كوبا تشكل تهديداً لأمنهم القومي، فإن أربعين مليون مكسيكي سيموتون من الضحك.

فهذه الهستيريا، والتعصب الأعمى، هما بالفعل غير عاديين، ومهمان، ويستحقان التحليل والتفكير. من أين يأتي هذا؟ يمكن أن يشرح العمق التاريخي الأمر جزئياً، لكن هناك ما هو أكثر مما هو موجود في العالم الحالي. والإطار الجيد للتفكير هو ما أصبح الآن الفرضية الرئيسية في الخطاب الفكري، في المجلات الجدية بخاصة. إنه ما يُدعى بـ«الإنسانوية الجديدة»، التي أعلنها كلينتون وبلير، ومعاونون مختلفون، برهبة وقداسة. وبحسب هذه الفرضية، التي تقرؤونها مرة بعد أخرى: نحن ندخل حقبة جديدة مجيدة، ألفية جديدة، بدأت، فعلياً، منذ عشرة أعوام حين تحررت الدولتان المتنورتان، كما تدعوان نفسيهما، من أغلال الحرب الباردة، وأصبحتا قادرتين،

بالتالي، على إعادة تكريس نفسيهما، بنشاط كامل، لمهمتهما التاريخية وهي منح العدالة، والحرية، لشعوب العالم التي تعاني، وحماية حقوق الإنسان في كل مكان، بالقوة إذا اقتضت الضرورة، الأمر الذي مُنعتا من القيام به أثناء مقاطعة الحرب الباردة لنا.

إن تجديد المهمة المقدسة واضح تماماً؛ وهو ليس متروكاً للخيال. ألقى كلينتون خطاباً رئيسياً في قاعدة نورفولك الجوية، في الأول من نيسان من عام 1999، شرح فيه لماذا يجب أن نقصف كل ما نراه أمامنا في البلقان. وقدمه وزير الدفاع، ويليم كوهن، الذي افتتح ملاحظاته بتذكير الجمهور ببعض الكلمات الدرامية التي افتتحت القرن الماضي. ذكر ثيودور روزفلت، الذي أصبح رئيساً فيما بعد، الذي قال: «إذا لم تكونوا راغبين بالقتال من أجل مُثُل عظيمة، فإن هذه المُثُل ستتلاشى». وكما افتتح ثيودور روزفلت القرن بتلك الكلمات المثيرة، اختتم، خليفته، ويليم كلينتون، القرن بالموقف نفسه.

كانت تلك مقدمة مهمة لكل من درس منهاجاً في التاريخ الأمريكي، وهو، منهاج حقيقي. إن ثيودور روزفلت، كما كانوا يعلمون، كان أحد أكثر العنصريين، والمخرفين الفائقين للعادة في التاريخ المعاصر. وكان معجباً أيما إعجاب بهتلر، ولسبب جيد. فكتاباته تصدم القارئ. وبنى شهرته من خلال المشاركة في الغزو الأمريكي لكوبا. فبحلول 1898، كانت كوبا قد

حررت نفسها من أسبانيا بعد صراع طويل، ولكن الولايات المتحدة لم تكن تتعرض لأي من هذا، وهكذا غزت كي تعرقل نجاح الصراع من أجل الاستقلال. وبسرعة تحولت كوبا إلى ما دعاه بـ «مستعمرة حقيقية» للولايات المتحدة بروفيسوران من هارفارد، حررا أشرطة كينيدي مؤخراً. وبقيت إلى عام 1959. هذا وصف صحيح. لقد حُوِّلتْ كوبا إلى «مستعمرة حقيقية» بعد الغزو الذي وُصِفَ بأنه تدخل إنساني، بالمصادفة.

كانت الولايات المتحدة معزولة تماماً في ذلك الوقت أيضاً. وكانت حكومة الولايات المتحدة معزولة، بالطبع، عن الشعب الكوبي، لكنها كانت أيضاً معزولة عن السكان الأمريكيين، الذين كانوا سذجاً بما يكفي لتصديق الدعاية، وكانوا بشكل ساحق مع تحرير كوبا Cuba libre دون أن يفهموا أن هذا كان الشيء الأخير في أذهان قادتهم، أو، من وجهة نظر أخرى، الشيء الأول في أذهانهم، لأنه كان عليهم منعه.

فالمُثُل النبيلة التي قاتل روزفلت من أجلها كانت في الحقيقة، جزئياً: منع الاستقلال من خلال التدخل الإنساني. على أي حال، في الوقت الذي خطب فيه، في 1910، كانت القيم التي يجب أن نعززها بالقوة قد توضحت بشكل أكثر درامية في مكان آخر غير كوبا، وأعني في غزو الفلبين. كان ذلك الغزو أكثر الحروب الاستعمارية إجراماً في التاريخ، وأدى إلى قتل مئات الآلاف من الفلبينيين. واعترفت الصحف أنها

مجزرة جماعية، ولكنها نصحت بأننا يجب أن نواصل قتل «المحليين» على الطريقة الإنكليزية، إلى أن «يحترموا أسلحتنا» ويحترموا، في النهاية، نوايانا الطيبة. وكان هذا أيضاً يدعى بالتدخل الإنساني.

ثمار الغزو

كانت هناك مشكلتان. قال الرئيس مكينلي: لا نستطيع الزعم، عند هذه النقطة، بأننا حصلنا على موافقة الفلبينيين، لكن هذا غير مهم لأننا حصلنا على موافقة ضمائرنا في إنجاز هذا الفعل الإنساني العظيم، وفي النهاية، هذا ما يهم. وعارض الحرب بقوة عدد قليل من الأشخاص، منهم، على سبيل المثال الأديب مارك توين، الذي عُتم عليه لمدة تسعين عاماً، وظهرت مقالاته ضد الإمبريالية في 1992. لكن مكينلي أشار إلى أن «هذا ليس وقتاً جيداً للمحرر كي يطرح أسئلة جيدة، تتعلق بالحرية والحكومة، للمُحررين». وهكذا سننتظر إلى أن يتوقفوا عن إطلاق النار على منقذيهم، وبعدها سنشرح لهم مسائل الحرية. كانت هذه هي القيم التي يُدافع عنها، بمئات الآلاف من الجثث ودمار هائل، في النصف الأول من القرن، وهذه هي القيم التي يُقال لنا الآن إننا يجب أن نقاتل من أجلها وندعمها، كما يعلن الوريث الحالي لقيم ثيودور روزفلت.

وتتطلب المسألة إيماناً كبيراً بالنظام العقائدي الأمريكي

للتلفظ بهذه الكلمات، وتوقع ألا يغضب الناس منها، وعلى ما يبدو لقد فعل هذا الإيمان فعله، إذ لم يُسجل، بحسب معرفتي، أي غضب، إلا في الدوائر الهامشية المعتادة. وكانت تلك الفترة نقطة تحول في التاريخ الحديث، وبالتأكيد في التاريخ الأمريكي، ثم في تاريخ العالم. وحتى ذلك الوقت، ومنذ الثورة، كانت الولايات المتحدة منغمسة في مهمتها الرئيسية، والتي عبر عنها مؤرخ دبلوماسي في 1969 قائلاً: إنها مهمة «قطع الأشجار، واستئصال الهنود، وتدوير حدودها الطبيعية». وكان أحد التأثيرات المفيدة لمذهب الفعالية* في الستينيات هو أن مؤرخاً بارزاً لا يستطيع التفوه بهذه الكلمات اليوم، ولا حتى مخرف شوفيني. لا أحد سيكتب هذا اليوم. يمكن أن يفكروا به، ولكنهم سيعرفون أنهم ينبغي ألا يقولوه.

وهكذا بعد «قطع الأشجار، واستئصال الهنود، وتدوير الحدود الطبيعية»، كان من الضروري الالتفات إلى عوالم جديدة لغزوها. ففي 1888 أعلن وزير الخارجية جيمس بلين الغزوات التالية. وقال إن هناك ثلاثة أمكنة تمتلك قيمة كافية لاحتلالها بسرعة: هاواي، كوبا وبويرتو ريكو. وبعد بضع سنوات، أبلغ السفير الأمريكي في هاواي واشنطن بأن «الإجاص في هاواي

* مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفة (كاستعمال القوة لتحقيق الأغراض السياسية) ـ المورد.

في قمة نضجه الآن»، وحان قطافه، وقطفته الولايات المتحدة، وأخذت هاواي من سكانها الأصليين بمزيج من القوة الساحقة والمكر. وكانت هذه واحدة. وكان السفير يكرر، في الحقيقة، كلمات جون كوينسي آدامز، التي تعود إلى سبعين سنة مضت، والذي وصف كوبا بأنها «ثمرة لم تنضج» بعد، لكنه قال: إنها ستصبح ثمرة ناضجة، وحين تنضج ستقع في أيدينا «من خلال قوانين الجاذبية السياسية». كان هذا حوالي 1820.

كانت المشكلة طوال القرن التاسع عشر هي الرادع البريطاني. أما في الستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات، فقد كانت الرادع الروسي. لكن العدو الكبير في القرن التاسع عشر، العدو الذي كان يجب أن يركع، كما أشير مرة بعد أخرى، فقد كان بريطانيا. لهذا السبب لا تزال كندا وكوبا لونين مختلفين على الخريطة. لقد وضع ذلك الرادع حدوداً على الحماسة التحريرية للثوريين وورثتهم. لكن آدامز أشار، بشكل صحيح تماماً، كما فعل توماس جيفرسون وآخرون، أنه مع مرور الزمن ستتغير موازين القوى، ولن يكون الرادع البريطاني فعالاً، وستتمكن الولايات المتحدة من احتلال كوبا، كما يجب أن تفعل بسبب أهميتها الفائقة للعادة بالنسبة للولايات المتحدة، بقوانين الجاذبية السياسية، أي، بالقوة. وحدث هذا في 1898. إذ غزت الولايات المتحدة كوبا كي تمنع التهديد الكبير، أي تحررها من أسبانيا. وتم احتلال بويرتو ريكو في العام نفسه،

وجاءت الفلبين كعلاوة إضافية. لم يتم التفكير بها، ولكنها بدت ثمرة ناضجة، أيضا، وتم تسميدها بكثير من الجثث.

كانت جميع تلك الأحداث مخططاً لها. وفي الحقيقة، كانت الثمرة الأضخم، والتي تمتلك نظاماً ضخماً هي الصين. فالصين كانت طوال ألفي عام إحدى أهم البلدان في العالم، وقوة تجارية وصناعية رئيسية، ولكن هذا تغير بحلول القرن التاسع عشر. وفي نهاية القرن كانت القوى الأوروبية واليابان مشغولة بتقطيع الصين، وأرادت الولايات المتحدة أن تشارك في الفعل كونها قوة ناشئة. كانت تجارة الصين أسطورة كبيرة من الأيام الأولى لنيوإنجلاند: كان تجار نيوإنجلاند ذاهبين لجني النقود من تجارة الصين. ومن أجل استغلال تجارة الصين، وأن نلعب دورنا الملائم في تقطيع الصين، كان من الضروري تحويل المحيط الهادي، والبحر الكاريبي، إلى «بحيرتين أمريكيتين»، كما عبر المخططون عن الأمر. وكان هذا يعني احتلال كوبا، والسيطرة على الكاريبي، وسرقة ما دعي ببنما من كولومبيا ـ إنجاز آخر من إنجازات ثيودور روزفلت ـ وشق القناة، واحتلال هاواي، واحتلال الفلبين كقاعدة أخرى للتجارة مع الصين، وفي الحقيقة تحويل هذين البحرين، الكاريبي، والهادي، إلى بحيرتين أمريكيتين، كما هما اليوم.

كان كل فعل من أفعال 1898 وما تبعها مرتبطاً، بطريقة أو أخرى، وعادة بشكل واضح، مع ذلك الهدف طويل الأمد.

ويشمل هذا ما دعي بلازمة ثيودور روزفلت الطبيعية لعقيدة مونرو، التي صاغت، رسمياً، حق الولايات المتحدة بحكم الكاريبي. وحصلت الغزوات المتكررة لنيكاراغوا، وغزوات وودرو ويلسون، الدموية جداً، لجمهورية الدومينيكان وهاييتي، وكان غزو هاييتي في غاية الوحشية لأنه كان مصطبغاً بالعنصرية المتطرفة، ولن تشفى هاييتي من هذا أبداً، وفي الحقيقة يمكن ألا تكون صالحة للسكنى لعقدين. بالإضافة إلى أفعال أخرى كثيرة في تلك المنطقة كانت كلها جزءاً من الإنسانوية الجديدة، التي نعيد إحياءها الآن.

وربما كان الإنجاز الرئيسي في فنزويلا، حيث نجح وودرو ويلسون، في 1920، في طرد العدو البريطاني، الذي أضعفته، في ذلك الوقت، الحرب العالمية الأولى. كانت فنزويلا تمتلك أهمية استثنائية. وكان العالم يتحول إلى اقتصاد يستند إلى النفط في ذلك الوقت. وكانت أمريكا الشمالية، أي الولايات المتحدة الأمريكية، المنتج الرئيسي للنفط في ذلك الوقت، وبقيت هكذا إلى حوالي عام 1970، لكن فنزويلا كانت مصدر نفط مهم، أحد أكبر المصادر في العالم، وكانت، في الحقيقة، أكبر مصدر مفرد إلى 1971، ولا تزال أكبر مصدِّر إلى الولايات المتحدة. وهكذا فإن طرد بريطانيا من هناك أمر مهم جداً. كانت فنزويلا تمتلك أيضاً ثروات أخرى، مثل الحديد، ولقد أغنت الشركات الأمريكية نفسها في فنزويلا لعقود ـ ولا

تزال تفعل ذلك ـ بينما دعمت الولايات المتحدة سلسلة من الديكتاتوريات المجرمة لتبقي الشعب خاضعاً.

إن «أشرطة كينيدي»، الأشرطة السرية لأزمة الصواريخ الكوبية، لا تقدم معلومات كافية بما أن كل شيء هناك تقريباً حصل بطريقة أو أخرى، لكنها تقدم معلومات عن بضعة أمور جديدة. أحد الأمور الجديدة هو شرح لأحد أسباب اهتمام الأخوين كينيدي، روبرت وجون إف. بالصواريخ في كوبا. كانا قلقين من أن تصبح عائقاً لغزو أمريكي لفنزويلا، الذي اعتقدا أنه ضروري، لأن الموقف هناك كان يخرج من السيطرة. فالصواريخ في كوبا يمكن أن تمنع الغزو. وقال جون إف. كينيدي، مشيراً إلى ذلك: إن عملية خليج الخنازير كانت عملاً صائباً. سنتأكد من أننا سنربح؛ لا نستطيع قبول أي عائق كهذا لعملنا الخيري في المنطقة. وبعد أزمة الصواريخ، وعلى عكس ما قيل في غالب الأحيان، لم تتعهد الولايات المتحدة بعدم غزو كوبا. دعمت الإرهاب، وبالطبع كان الحظر موجوداً وفرض بقسوة أكبر، وهكذا بقيت الأمور جوهرياً كما هي.

تهديد كاسترو

وكما ذكرت، كانت كوبا مستعمرة حقيقية للولايات المتحدة إلى كانون الثاني 1959؛ ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى بدأت العجلات تدور مرة أخرى. وفي منتصف 1959 ـ نمتلك

الآن الكثير من الوثائق المتاحة من تلك الفترة، ولهذا، الصورة كاملة ـ قررت إدارة إيزنهاور، بشكل غير رسمي، بأن تغزو كوبا من جديد. وفي تشرين الأول من عام 1959 كانت الطائرات المنطلقة من قواعدها في فلوريدا تقصف كوبا. وزعمت الولايات المتحدة أنها غير قادرة على فعل أي شيء حيال ذلك، وبقيت «عاجزة» أثناء الأفعال الإرهابية الأخيرة، والتي قام بها عملاء دربتهم السي. آي. إي. كالعادة.

وفي آذار من عام 1960، اتخذت إدارة إيزنهاور، سرياً، قراراً بغزو كوبا، ولكن بشرط: يجب أن يُنجز الغزو بطريقة لا تكون يد الولايات المتحدة واضحة فيها. وكان سبب ذلك هو أنهم كانوا يعرفون أن هذا سيفجر أمريكا اللاتينية إذا تبين أن الولايات المتحدة أعادت احتلال كوبا. فضلاً عن ذلك، كانت لديهم استفتاءات تشير إلى أن هناك في كوبا مستوى عالياً من التفاؤل، ودعماً قوياً للثورة؛ ومن الواضح أنه سيكون هناك الكثير من المقاومة. ولهذا كان عليهم أن يطيحوا بالحكومة، ولكن بطريقة لا تظهر تورطهم في الأمر.

بعد ذلك بوقت قصير، جاءت إدارة كينيدي. وكانت متوجهة كثيراً نحو أمريكا اللاتينية؛ ولقد قام كينيدي، قبل توليه للسلطة، بتأسيس بعثة أمريكية لاتينية لدراسة شؤون القارة. وترأس هذه البعثة المؤرخ آرثر شليسنجر، الذي نُشرَ تقريره الآن. أبلغ فيه الرئيس كينيدي عن نتائج البعثة بخصوص كوبا.

وقال: إن المشكلة في كوبا هي «انتشار فكرة كاسترو عن تولي البلد لشؤونه بنفسه». وقال إن هذه الفكرة تروق جداً في كل أنحاء أمريكا اللاتينية، حيث «توزيع الأراضي، والأشكال الأخرى من الثروة القومية، هو لصالح الطبقات المالكة... أما الفقراء، والمعدمون، الذين يحرضهم نموذج الثورة الكوبية، فيطلبون الآن فرصاً من أجل حياة لائقة»[1]. هذا هو تهديد كاسترو. هذا صحيح. وفي الحقيقة، إذا قرأتم وثيقة التخطيط الداخلي عبر السنين، كان هذا هو التهديد دوماً. فالحرب الباردة هي حجة للعوام. انظروا إلى السجل؛ في قضية بعد أخرى، فالأمر هو هذا بالضبط. كوبا هي ما دعيتْ بـ «فيروس» يمكن أن يصيب بالعدوى الآخرين، الذين يمكن أن تحرضهم «فكرة كاسترو عن تولي البلد لشؤونه بنفسه»، ويصدقوا أنهم يمكن أن يحصلوا على حياة لائقة أيضاً.

هذا لا يعني أن روسيا لم تُذكر. لقد ذكرت روسيا في تقرير شليسنجر يقول، في الخلفية: إن روسيا تقدم نفسها «كنموذج لتحقيق التحديث في جيل واحد»، وتقدم قروض المساعدة، والتنمية. وهكذا هناك تهديد روسي. وتم توجيهنا، بقوة، بأنه حين نفحص الإنسانوية الجديدة ليس من المفترض أن نبحث عن تلك القصص القديمة، والبالية عن الحرب

1. انظر: الفصل الأول، والهامش 3 من هذا الكتاب.

الباردة، حين منعنا الروس من القيام بأمور رائعة. ومن المهم جداً ألا نبحث، لأن المؤسسات بقيت دون تغيير، وبقي التخطيط دون تغيير، والقرارات لم تتغير. ومن الأفضل بكثير أن نضمن أن الشعب لا يعرف شيئاً عنها.

تولت إدارة كينيدي مهامها، وتواصلت الأمور حتى نهاية الحرب الباردة. وهذا لا يعني أن لا شيء تغير في نهاية الحرب الباردة؛ حدث تغير. وكان الشيء الرئيسي الذي تغير هو أنه لم يعد هناك رادع سوفياتي. وعنى هذا أن الولايات المتحدة أصبحت أكثر حرية من قبل، هي وكلبها الهجومي المخلص، المملكة المتحدة. وهكذا أصبحت الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، أكثر حرية الآن في استخدام القوة مما كانتا عليه حين كان هناك رادع. وتم الاعتراف بذلك على الفور. لكن هناك حاجة إلى حجج جديدة. لم يعد بوسعك القول أن كل ما نفعله هو ضد الروس.

وسقط جدار برلين في 1989 لينهي الحرب الباردة بقدر ما يهم الأمر أي عاقل. وفي تشرين الأول من عام 1989، قبل شهر من سقوطه، أصدرت إدارة بوش توجيهاً سرياً يتعلق بالأمن القومي، وقد نشر الآن، دعت فيه إلى دعم صديقنا الكبير صدام حسين، وشخصيات أخرى مشابهة في الشرق الأوسط، للدفاع عنهم ضد الروس. كان هذا تشرين أول من عام 1989. وفي آذار من عام 1990 ـ بعد أربعة أشهر من سقوط

جدار برلين ـ كان على البيت الأبيض أن يقدم عرضه السنوي للكونغرس مطالباً بميزانية عسكرية ضخمة، كانت نفسها كما في الأعوام السابقة، إلا أن الحجج كانت مختلفة. وهذا ليس الآن لأن الروس قادمون، وإنما، على ما يبدو، لأن الروس ليسوا قادمين، كان السبب ما دعوه بـ «التقدم التكنولوجي» لقوى العالم الثالث. فيما يتعلق بالشرق الأوسط، تغيرت التوجيهات منذ تشرين الأول: كانت آنذاك: «الروس قادمون». وفي آذار، كانت: يجب أن تستهدف قوات تدخلنا الشرق الأوسط كما في السابق، حيث التهديد لمصالحنا «لا يمكن أن تترك على بوابة الكرملين»، على عكس أكاذيب الأربعين سنة الماضية. في قضية بعد أخرى، تتغير الحجة، وتبقى السياسات دون تغيير، لكنها الآن دون قيود.

توضح هذا على الفور في أمريكا اللاتينية. فبعد شهر من سقوط جدار برلين غزت الولايات المتحدة بنما، وقتلت مائتي، أو ربما ألفي شخص، ودمرت الأحياء الفقيرة، وأعادت تنصيب نظام من الصيارفة ومهربي المخدرات ـ ازدادت تجارة المخدرات وعمليات غسل الأموال، كما أشارت دوائر البحث الكونغرسية ـ وإلى ما هنالك. وهذا طبيعي، حاشية في التاريخ، لكن هناك اختلافين: الاختلاف الأول هو أن الحجج كانت مختلفة. كان هذا التدخل الأول منذ بداية الحرب الباردة، الذي لم يحدث للدفاع عن أنفسنا من الروس. الهدف هذه

المرة هو الدفاع عن أنفسنا من مهربي المخدرات الهسبانيين. ثانياً، اعترفت الولايات المتحدة على الفور أنها أكثر حرية في الغزو دون أي قلق من أن أحداً ما، الروس مثلاً، يمكن أن يرد في مكان ما في العالم، كما أشار مساعد وزير الخارجية آبرامز، بسعادة.

ويصح الشيء نفسه على العالم الثالث بعامة. فالعالم الثالث يمكن أن يُزدرى الآن. لم يعد هناك مجال بعد لعدم الانحياز. وهكذا أنسى العالم الثالث ومصالحه؛ لست مضطراً للتظاهر بالاهتمام به. كان هذا واضحاً جداً في السياسة منذ ذلك الوقت.

فيما يتعلق بكوبا، حدث الأمر نفسه. تماماً بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، أصبح الحظر ضد كوبا أكثر قسوة، وبمبادرة ليبرالية، بالمصادفة: كانت مبادرة توريسيللي ـ كلينتون. وكانت الحجج مختلفة. قبل ذلك، كانت الحجج هي أن الكوبيين كانوا مجساً للوحش السوفياتي على وشك أن يخنقنا؛ والآن، فجأة، جعلنا حبنا للديموقراطية نعارض كوبا.

تدعم الولايات المتحدة نوعاً معيناً من الديموقراطية. ونوع الديموقراطية الذي تدعمه وصفه، بصراحة، باحث بارز درس المبادرات الديموقراطية لإدارة ريغن في الثمانينيات، وكتب من وجهة نظر شخص من الداخل، لأنه كان في وزارة الخارجية

يعمل على مشاريع «تعزيز الديموقراطية»: وهو يدعى توماس كاروزرس. يشير إلى أنه رغم أن إدارة ريغن، التي اعتقد أنها كانت مخلصة جداً، قضت على الديموقراطية في أمكنة أخرى، إلا أنها كانت مهتمة بنوع خاص من الديموقراطية، ما دعاه بأشكال الديموقراطية «المقلوبة»، التي تترك «البنى التقليدية للسلطة» في مكانها، أي تلك التي تمتلك الولايات المتحدة علاقات جيدة وطويلة معها. طالما أن الديموقراطية تمتلك هذا الشكل، فليست هناك مشكلة.

تبقى مشكلة كوبا الحقيقية كما كانت دائماً: تهديد «فكرة كاسترو بتولي البلد لشؤونه بنفسه»، التي تشكل، باستمرار، محرضاً للفقراء، والمعدمين، الذين لا يستطيعون أن يقبلوا ما تُحشى به رؤوسهم بأنهم لا يمتلكون حق البحث عن حياة كريمة. ولسوء الحظ، تواصل كوبا جعل ذلك واضحاً، على سبيل المثال، من خلال إرسال أطباء إلى جميع أنحاء العالم، بنسبة أعلى من أي بلد آخر، رغم مشاكلها الحالية، التي هي حادة، ومن خلال الحفاظ، بشكل لا يمكن تصوره، على نظام صحي يشكل إرباكاً كبيراً للولايات المتحدة. وبسبب اهتمامات كهذه، وبسبب تعصب يعود إلى التاريخ الأمريكي القديم، فإن الولايات المتحدة، في هذه اللحظة، على الأقل، تواصل الهجوم الهستيري، وستواصل ذلك إلى أن تُردع.

ورغم أن الرادع الأجنبي، الذي لم يكن فعالاً، لم يعد

موجوداً، إلا أن العائق الأكبر لا يزال حيث كان دوماً، داخل الوطن. فثلثا السكان يعارضون الحظر حتى بدون نقاش. تخيلوا ماذا سيحدث لو نوقشت المسائل بطريقة جادة وشريفة، إن هذا يترك فرصاً ضخمة لممارسة ذلك الرادع.